أين أخفقت الصهيونية ؟

عبد القادر ياسين

لعل من فضلة القول إن حياة الصهيونية لم تحفل بالنجاحات فحسب ، بل ثمة اخفاقات حاقت بهذه الحركة الاستعمارية العنصرية العدوانية . هذا برغم أنها من أعرق وأهم المؤسسات برمجة فى العالم ، حيث أنها لم تترك أمرًا للصدفة .

حين أنهى المؤتمر الصهيونى الأول أعماله ، فى بال ، قبل قرن من الزمن ، وعد رئيس المنظمة الصهيونية ، آنذاك ، تيودور هيرتزل بتأسيس الدولة اليهودية ، بعد خمسين سنة . الأمر الذى تحقق ، فعلًا ، فى الموعد الذى ضربه هيرتزل ، عبر محطات مفصلية تحضيرية ، مرة كل عقد من السنين . ففى سنة ١٩٠٧ ، استقر المؤتمر الصهيونى الخامس على فلسطين ، دون غيرها ، موقعًا للدولة اليهودية . بعد أن ظل الصهاينة مترددين ما بين الأرجنتين ، وبرقة ، والمهرة وأوغندا ، والعريش ، وفى السنة نفسها أسست الحركة الصهيونية أول منظمة مسلحة فى فلسطين (هاشومير هتسعير) .

فى سنة ١٩١٧ صدر « تصريح بلفور » ، وفيه وعدت الحكومة البريطانية اليهود بتأسيس وطن قومى لهم فى فلسطين .

بعد ١٢ سنة وسعت الحركة الصهيونية « الوكالة اليهودية » ، حتى تتسع لكل يهود العالم ، بمختلف مدارسهم الفكرية ، وتوجهاتهم السياسية .

فى سنة ١٩٣٧ ، أوصى تقرير « لجنة بيل » الملكية البريطانية بتقسم فلسطين بين مواطنيها العرب ، ومستوطنيها العرب ومحتليها البريطانيين ، وهذه أول توصية

رسمية بتقسيم التراب الفلسطينى فى التاريخ .

صحيح أن هذه التوصية قد قوضها كفاح الشعب الفلسطينى المتعاظم ضد الاستعمار البريطانى ، وعملاءه ، آنذاك ، الحركة الصهيونية . لكنه قبل أن تتوارى سنة ١٩٤٧، كان قرار تقسيم فلسطين قد صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة .

سنة ١٩٥٦ ، شارك « جيش الدفاع الإسرائيلى » فى « العدوان الثلاثى » على مصر وقطاع غزة ، إلى جانب القوات المسلحة البريطانية والفرنسية . صحيح أن « جيش الدفاع الإسرائيلى » اضطر إلى الانسحاب ، شأن شريكيه ، البريطانى والفرنسى أساسًا ؛ لأن الطرف الإسرائيلى التحق بالأخيرين ، فى المخطط والأداء ، فكان طبيعيًا أن ينتهى به الأمر نهاية الجيش البريطانى والفرنسى نفسها .

فى سنة ١٩٦٧ شن الكيان الصهيونى حربه الشهيرة على مصر ، وسوريا ، والأردن ، وقطاع غزة ، وكان انتصاره المدوّى ، المصنوع فى واشنطن ، على حد تعبير مراسل يومية « هارتس » فى واشنطن ، آنذاك .

بعد هذه الهزيمة العربية بعشر سنوات ، جاءت « مبادرة السادات » ، وما تلاها من صلح عقده السادات مع الكيان الصهيونى .

بعد المبادرة بعشر سنوات ، اندلعت الانتفاضة الشعبية الفلسطينية المجيدة .

بعد عِقْد من اندلاع هذه الانتفاضة ، أُعلن عن « اتفاق أبومازن ، بيلين » ، الذى تنازل فيه الأول للكيان الصهيونى عن القدس ، قابلًا بالعيزرية وأبو ديس – من البلدان المجاورة للقدس – بديلًا عن المدينة المقدسة ، عاصمة للحكم الإدارى الذاتى الفلسطينى المحدود .

فضلًا عن البرمجة الدقيقة ، حظيت الصهيونية - لأسباب غدت معروفة - بدعم مطلق فى المعكسر الإمبريالى ، وبخاصة الدولة الأولى فى هذا المعكسر (بريطانيا ، حتى عام ١٩٤٢؛ والولايات المتحدة الأمريكية ، منذئذ وحتى الآن) .

نجاحات مضمَّنة إخفاقات

حققت الصهيونية جملة مهمة من النجاحات الساحقة ، لكن هذه النجاحات لم تخلُ من الإخفاقات ، بهذا القدر أو ذاك .

لقد توَّجت الصهيونية نجاحاتها ، خلال نصف قرن من حياتها ، باقتطاع النسبة الأكبر من التراب الفلسطينى ، وإقامة كيانها فوقه ، لكن مشروعها « من النيل إلى الفرات » لا يزال مستعصيًا ؛ ويمثل أحد أهم إخفاقات الصهيونية .

إلى ذلك نجح الكيان الصهيونى فى التحول إلى أحد أهم مراكز إدارة مواقع التحكم فى أمور العالم ، فى مجالىْ المال والإعلام ، حيث يتحكم الصهاينة فى نسبة مؤثرة من هذين المجالين . وإن عجز الكيان الصهيونى عن التحول إلى موطن إنسانى آمن لكل اليهود . وما كان له أن يتحول إلى هذا الموطن ، وهو الذى اغتصب أرضًا وحقوقًا ، واقتلع شعبًا ، وشرده ، مما فتح باب الحرب على مصراعيه ، وهيهات أن يُغلق هذا الباب ، قبل أن تعود كل الحقوق لأصحابها .

أما المجال الثالث الذى نجح فيه الكيان الصهيونى ، فكان إشاعة الديمقراطية بين كل يهود الكيان الصهيونى . حيث نجحت هذه الديمقراطية فى احتواء شتى التعارضات فى المجتمع الصهيونى ، على أن الانزياح المطرد للوشاح الدينى عن

الصهيونية ، وضع المتدنيين فى مواجهة العلمانيين داخل الكيان الصهيونى ؛ على نحو غير مسبوق فى هذا الكيان ، فقد غدا معروفًا بأن المجتمع الصهيونى تعرض لعمليات تغيير سياسية عميقة ، بفعل البراجماتية التى نهشت مُثُل أيديولوجيا الصهيونية ، عند تأسيسها . لذا فإن حلول « الليكود » محل « العمل » ، صيف ١٩٧٧ ، اعتبر - بحق انقلابًا دراماتيكيًا فى السلطة داخل الكيان الصهيونى ، التى احتكرها « العمل » ، لثلاثة عقود متصلة ، فضلًا عن ثلاثة عقود أخرى ، قبل إنشاء الكيان . وارتبط ذلك الانقلاب بانهيار المنظومة الفكرية السابقة . وتعود جذور هذا الانقلاب إلى حرب ١٩٦٧ ، التى قوضت الكثير من المثُل الأيديولوجية والسياسية الصهيونية ؛ فقد أغرى الانتصار الكاسح ، حكومة « العمل » على طرح المفاوضات مع العرب ، بهدف إيجاد تسوية معهم . وأضافت حرب ١٩٧٣ إلى هذه الضربة للمثُل الصهيونية عامل عجز المؤسسة السياسية القائمة فى الكيان الصهيونى ، فألحت مشكلة إعادة تفسير الرؤيا الصهيونية ، من جديد ، وتدهورت قيم السلوك الفردى والجماعى فى الكيان ، فى آن معًا .

فى المجال الرابع ، نجحت الحكومة الصهيونية المتتالية فى رص فسيفساء المجتمع الصهيونى المتنافرة ، بالإلحاح على « الخطر العربى » . مع هذا كله ، عجز هذا الكيان عن التحول إلى دولة اعتيادية . فهذا الكيان ظل - على مدى نصف القرن المنصرم - جيشًا له سكان ، أو أن هؤلاء السكان مجرد جنود فى إجازة ، لمدة أحد عشر شهرًا ، فى السنة .

كما نجح الكيان الصهيونى فى استنزاف العرب ، وتعطيل مشاريعهم التنموية ، وجاء هذا الاستنزاف عبر حصة الأسد التى نالها التسليح فى كل موازنة الأقطار

المواجهة . حيث التهمت تلك الحصة ما يربو قليلًا على نصف كل موازنة . ناهيك عن الحروب التى دأب الكيان الصهيونى على شنها ضد محيطه العربى ، ونجحت فى إجهاض ما تمت مراكمته فى ميدان التنمية . برغم ذلك ، عجز الكيان الصهيونى ، حتى الآن ، عن إسقاط المقاطعة ، التى أشهرتها الدول العربية فى وجه ذلك الكيان ، منذ تأسس ، قبل زهاء نصف قرن .

فضلًا عن أن وجود الكيان الصهيونى ، فى حد ذاته ، كان ضمن معوقات الوحدة العربية . لكن جهد الكيان هنا لم يدفعه إلى النجاح فى اصطناع قومية يهودية مفتقدة . حيث ثمة ست ثقافات متصارعة ، ١٦ لغة مختلفة ، حتى أن العبرية لم تنتشر بدرجة تزيد كثيرًا عن انتشار اللغة الإنجليزية فى الهند . ناهيك عن أن كل مجموعة مهاجرين يهود وفدت إلى فلسطين المحتلة ، تشبثت بالسكنى فى منطقة واحدة ، حتى تبقى على أواصر العلاقة ما بين أفراد المجموعة المعنية . حتى أنه ندر أن تزوج الواحد منهم من خارج المجموعة التى وفد معها من قطر المنشأ .

فى المجال السادس نجح الكيان الصهيونى فى حماية أنظمة عربية . فيما عجز عن حل المسألة اليهودية ، بل فاقمها .

لقد تحقق أمل الإمبريالية الأمريكية فى أن يقوم الكيان الصهيونى بحماية المصالح الأمريكية فى الوطن العربى . فيما فشل ذلك الكيان فى الاستمرار على قيد الحياة ، بدون خيمة الأكسجين الأمريكية .

لكن هذا لم يدفع حكومات الكيان الصهيونى المتتابعة إلى الاكتفاء بدور مخلب القط هذا ، بل اجتهدوا للتحول إلى شريك صغير ، وقد كان ، حتى أخذ هذا الشريك يكبر ، باطراد . وإن جاء هذا على حساب الصهيونية ؛ وكأن ثمة

علاقة طردية بين قوة الدولة الصهيونية وبين حجم الأزمة داخل الصهيونية ، فكرًا وحركة بالتخطيط ، والتوظيف الفاعل للإمكانات المالية والإعلامية ، الصهيونية والإمبرالية ، على حد سواء ، ناهيك عن ترسانات أسلحة الأخيرة ، التى وضعت بتصرف الكيان الصهيونى ، تمكن بها الأخير من بناء أقوى دولة فى المنطقة . على أنه برغم هذه القوة ، إلا أن المحيط العربى تشبث برفض هذا الكيان العاجز عن فرض اندماجه فى هذا المحيط .

إن هذه القوة أفزعت بعض الحكام العرب ، فكانت « اتفاقات الإذعان » مع بعض الأطراف العربية . لكن قوة عدالة القضية العربية ، وإرادة القتال لدى الأمة العربية ، دفعتا البعض الآخر من الحكام العرب إلى رفض شروط الاستسلام للكيان الصهيونى .

استنتاجات

على مدى قرن من الزمن ، توالت نجاحات صهيونية ، قابلها اخفاقات فى المجال عينه ، أو فى مجالٍ موازٍ ؛ بما أكد ، مجددًا ، بأن لكل ضوء ظلًا .

بيد أن نجاحات الصهيونية أكبر من إخفاقاتها ، وأقوى . وقد سارعت الصهيونية إلى تطويب كل نجاح تحققه ، وتوثيقه ، والمراكبة عليه ، بينما اتسمت الإخفاقات الصهيونية بطابعها المؤقت ، وبأنها لم تحدث إلا بقوة عدالة قضيتنا الوطنية ، وبتضحيات أنبل أبناء وطننا العربى ، واستجابة لجسارة مناضلينا وقوانا الوطنية العربية ، على مختلف مشاربها ومع ذلك ، فلطالما سارعت الصهيونية إلى تجنب تلك الإخفاقات ، ومسح آثارها .

على أن استعراضنا عاليه قد يظهر الطرف الصهيونى فى صورة من لارادّ لإرادته ، يخطط ، وينفذ ، ويحقق ما يصبو إليه ، فيما برمجته محكمة لا تخيب . وإن كانت « المقاومة الوطنية اللبنانية » قد أثبتت عكس ذلك تمامًا ، حين أجبرت القوات الصهيونية المحتلة على الفرار من جنوب لبنان ، سنة ١٩٨٤، فسقط اتفاق ١٧ أيار / مايو ، من جانب الكيان الصهيونى ، الذى سبق أن فرض اتفاق الإذعان هذا على الحكم اللبنانى ، فأخلى « جيش الدفاع الإسرائيلى » الأراضى اللبنانية ، دون ما حاجة إلى اتفاق يربط هذا الانسحاب بتكبيل القوى الوطنية اللبنانية ، بما يحول دون شنها هجمات عسكرية ضد إسرائيل وأدواتها فى الشريط الحدودى . ثم جاءت « المقاومة الإسلامية » لتؤكد من جديد مدى عقم البرمجة الصهيونية مع شعب تسكنه إرادة التحرير . وأستأذنكم فى ألا أشير إلى المعجزة الفيتنامية فى هذا الصدد ، حيث هزم شعب فقير بأسلحة متواضعة أعتى قوة فى العالم ، وأشرس ترسانة أسلحة عرفها التاريخ . إذ ربما يكون البعض قد ملَّ سماع « هذه المعزوفة » ، أو أن البعض الآخر يرى المعجزة الفتينامية قد تمت فى سياق مغاير ، ومع عدو مختلف ؛ فيما يعيد البعض الثالث الانتصار الفتينامى إلى « الجنرال غابات » ؛ فيما يعتبره آخرون استثناءً يؤكد القاعدة .

غنى عن القول بأن نجاحات الصهيونية اتكأت ، بالدرجة الأولى ، على روابطها الحميمة بالإمبريالية ، أبان قرن صعود الأخيرة (القرن العشرين) . فضلًا عن حرص الصهيونية المزمن على إجراء تقدير للموقف المحلى ، والإقليمى ، والدولى ، أولًا بأول ؛ كى تعيد النظر فى تكتيكاتها ، التى مهما اختلفت ، تظل فى خدمة الهدف الاستراتيجى ، فضلًا عن إجادة الصهيونية توظيف كل المتاح من العوامل ، ونجاح تلك الحركة فى عمليات توزيع الأدوار بين قادتها ، بحيث توزعهم

على الإمبرياليات المتعادية . فالصهيونية حرصت على ألا تضع بيضها كله فى سلة دولة واحدة . فمن يدرى .. فقد تتوفر مفاجأة تقلب الأمور ضد الدولة الأقوى ، لصالح هذه الدولة أو تلك من الدول الإمبريالية الأقل قوة .

مع هذا كله ، لعل أهم ما أتاح للصهيونية تحقيق هذا الكم فى النجاحات ، تردى أوضاعنا العربية فى شتى المجالات . فمن القصور الاقتصادى ، إلى التخبط السياسى ، إلى عجز البنى التنظيمة عمومًا ، والقيادة على وجه الخصوص . مما أفقد العرب مقومات النصر ، المتمثلة فى : الحزب السياسى القوى الفاعل ؛ والقيادة الجسورة ، المتمكنة من نظرية الثورة ، والقادرة على اجتراح البرنامج السياسى السليم ، ونسج التحالفات المحلية ، والإقليمية ، والدولية الصحيحة . أما العامل الخامس للنصر – وأعنى به القضية العادلة – فقد توفر دون ما حاجة إلى جهد منا .

إذا ما انتقلنا إلى الصراع فى الصف الصهيونى ، نلاحظ بأنه لم يصل إلى الثوابت الصهيونية ، بعد ؛ كما أن هذا الصراع لا يزال تحت سيطرة القيادة السياسية الصهيونية . مما يجعل من السذاجة القول إن الصهيونية قد انتهت . فكل ما فى مشروع شيمون بيريز الشرق أوسطى ، يؤكد وعى بيريز بالاستعصاءات المنتصبة فى وجه المشروع الصهيونى العتيد ، مما جعل ذلك الرمز الصهيونى يقدم صياغة قابلة للتنفيذ ، وتحقيق مصالح أوسع للصهيونية ، ومن قبلها الإمبرالية الأمريكية ؛ خاصة بعد أن غاب الحليف الاستراتيجى للقضايا العربية من : « المعسكر الاشتراكى » ، وفى القلب منه الاتحاد السوفيتى ؛ وبعد الآثار الكارثية لحرب الخليج الثانية على العرب ، وبعد اجتياح العولمة ، والتفشى النسبى لوباء « التطبيع » فى الوطن العربى .

لكن ، هل من مخرج ، يمكننا به توسيع دائرة إخفاقات الصهيونية ، واستثمارها لصالح قضايا العرب ، وتطويبها ، وتوثيقها . مع العمل الدؤوب ، المضنى من أجل تضييق دائرة النجاحات الصهيونية ، وصولاً إلى شطبها ؟

فى البدء كانت الجبهة الوطنية فى كل قطر على حدة ، قبل أن تتحد الجبهات الوطنية القطرية ، على مستوى الوطن العربى ، بعد تطبيع حقيقى للعلاقات العربية – العربية وعدم استصغار شأن أى شكل تضامنى عربى ، على أن تشترك أطراف الجبهة العربية فى اجتراح برنامج سياسى لانقاذ الوطن العربى كله ؛ فلم تعد فلسطين ، وحدها ، محتلة . على أن تضع الجبهة العربية نصب عينيها دستورًا ، قوامه : التحرير ، والديمقراطية ؛ والتنمية المستقلة ؛ والعدالة الاجتماعية ؛ والوحدة العربية . وإلى القوى الوطنية العربية مجتمعة يوكل أمر وضع آليات تنفيذ البرنامج ، فى مواجهة التحديات الراهنة .

بدون هذا كله ، لن نكون مع الكاتب الإسرائيلى شلومورايخ ، الذى يرى بأن إسرائيل تركض من نصر إلى نصر ، وصولاً إلى هزيمتها المحتمة .

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES